تأملات نفسية

فى « همس الجفون » لميخائيل نعيمه

١

لم يكن الشعراء فى الجاهلية يفسحون المجال فى شعرهم لتأملات نفسية ، فقد شغلتهم حياتهم الخارجية وأحداثها عن نفوسهم والنظر فيها ، وكانوا ماديين لا يؤمنون بالروح ولا بالحياة الأخرى فلم يقلقوا إزاء الغد المنتظر وما يستقبلهم فيه من ثواب وعقاب . ولما فتح الإسلام أبصارهم على عالمهم الروحى وأخذهم بتكاليف وعبادات دينية ووعد الصالحين المتقين الجنة والكافرين العاصين النار بدأ القلق يتمشى فى كيانهم وكيان شعرائهم ، فهم يخافون عذاب الله ويرجون نعيمه ، ولم تلبث طوائف الوعاظ أن نشأت ونشأ معها ضرب من الوعظ الدينى ، يتجه فيه الوعاظ إلى الناس ودخائل نفوسهم يريدون لهم أن يسيروا على الطريق المستقيم حتى لا تكون عاقبتهم البوار فى الدنيا والآخرة .

ويتطور الشعر العربى مع هذه الروح الجديدة أو قل تتطور جوانب منه ، فقد ظلت كثرة الشعراء تعنى بالأحداث الخارجية والعصبيات القبلية والأحزاب السياسية ، ولكن أفرادا قليلة منهم تأثرت كلام الوعاظ ، وأنصتت إلى دعوة الإسلام وتغلغلت فى أعماقها فزهدت فى دنياها ، ونظمت شعراً تحاول به أن تردع نفسها وتلومها أو تكفها عن شهواتها ، أو تحاول به أن تناجى ربها وتدعوه وتنيب إليه . ولا يتسع هذا الصنيع فى العصر الإسلامى ، إنما يتسع فى العصر العباسى ، العصر الذى ماج بالعناصر الأجنبية والثقافات الفارسية والهندية واليونانية ، فإذا الفكر العربى يرقى رقياً بعيداً ، وإذا خيوط الزهد الإسلامية تتحول إلى نسيج صوفى رائع ، ويعمل فى هذا النسيج أقوام مختلفون من أقطار العالم الإسلامى ويصبح التصوف عالماً فكرياً معقداً أشد ما يكون التعقيد ،

وهو عالم يقوم على أحوال ومقامات نفسية خالصة ، فالمتصوف يجاهد نفسه حتى تخلص من أدرانها وشوائب الحس فيها وتستعد للوصول والاتحاد بالذات العلية . ولكل صوفى عبارات أو كتب أو أشعار ، تصور أذواقه ومواجده وكيف رقيت نفسه من حال إلى حال حتى حظى بالوصال ، أو بعبارة أدق تصور رحلته من حياته المادية إلى حياته الروحية ، وما لقيه فى ذلك من عناء الرياضة والمجاهدة ، حتى وصل إلى ما وصل إليه من صفاء ونقاء ، فأشرقت نفسه بنور ربه . وهو لا يصمت حين يشرق عليه هذا النور ، بل يجمع عقله وخياله ليصور لنا نظام العالم الروحى وما فيه من آيات الخير والحق والجمال ، وتتلاحق أثناء ذلك خواطر لا حصر لها ، تصور أذواقه الصوفية وما انبسط تحت عينه الباطنة من مشاهدات ومكاشفات ، وهى خواطر ، بل هى حياة مستقلة عن العقل ودلالاته وبراهينه ، فالمتصوفة لا يبحثون عن ربهم بعقولهم وأفكارهم ، وإنما يبحثون عنه بقلوبهم ومشاعرهم ، وما يزالون يبحثون حتى يجدوه ، بل حتى يتذوقوا وجوده وهم يحيلون هذا التذوق أحوالا لنفوسهم ، وهى أحوال لا تكشف لهم ربهم وحده ، بل تكشف لهم الكون وما بين مظاهره وحقائقه من علاقات قائمة تتمثل فى الذات الإلهية .

وللمتصوفة أشعار بل دواوين كثيرة ، وأحياناً دواوين كبيرة على نحو ما نعرف عن ديوان ابن الفارض وابن العربى ، وأنت لا تقرأ فيها حتى تشعر بمتعة عظيمة ، إذ تجدك فى عالم غريب ، هو عالم النفس المتصوفة التى تكابد فى الحب الإلهى والتى تستغرق فيه ، معطلة لحواسها ولعقلها ، مفسحة لأحوالها النفسية ، بل لأحلامها وأوهامها إزاء ما تحاوله من رؤية ربها ، وإنها لتراه فى كل الأشياء وكل الموجودات ، فليس هناك شىء أو موجود تراه رؤية جزئية ، إنما تراه رؤية كلية تتجلى فيها الذات العلية .

ونفهم كثيراً مما يتحدث به الصوفية عن هذه الأحوال النفسية المستغرقة فى عشقهم الإلهى ، ولكن أطرافاً منها تبدو غامضة غموضاً شديداً ، حتى ليعجز العقل أحياناً عن فهمها ، لما قد يشيعون فيها من رموز تخفى دلالاتها ، وهى رموز تأتى

من غيبوبتهم عن عالم الحس ومن أنهم يرون الأشياء ببصر باطن غير بصرنا الظاهر ، ويسمعونها أيضاً بأذن باطنة غير أذننا الظاهرة ويدركونها بقلوبهم لا بعقولهم . لذلك كله يصبح ما يقولونه أحياناً غير مفهوم إلا لمن عانى ما عانوه وتذوق من الوجد الإلهى ما تذوقوه ، فإذا هو يرى الله متجلياً فى كل شىء ، ولا شىء سواه . ومن غير شك أسهبت الأشعار والدواوين الصوفية فى تصوير الأحوال النفسية لدى القوم وولدت كثيراً فى خواطرهم ومعانيهم ، فقد ركزوها فى شعور واحد هو شعور المحبة الربانية ، وظلوا يتأملون فى داخلهم وفى أعماقهم ، سابحين فى بحار الوجد وبين أمواجه ، يغرقون من مياه لا تنفد ، ولا يغرقون من السطح ، بل يمدون أبصارهم إلى القاع ويغوصون ويغرقون من الأعماق النفسية ، ولا مانع أثناء ذلك من أن ينتشر الضباب ويعم الغموض وتهجم الألغاز ، ونقرأ فنحار أمام ما يشيرون إليه من معان وأسرار .

وليست هذه التأملات النفسية الصوفية هى كل ما ورثناه عن العصر العباسى وما خلفه من عصور ، فقد ورثنا تأملات نفسية أخرى ، ليست من محيط المتصوفة ولا من عالمهم الوجدانى الغريب الذى ينكر العقل وطرقه فى الفهم والمعرفة ، وإنما هو من محيط هذا العقل نفسه وما يثير من قضايا فى النفس وصلتها بالكون وحقيقة الحياة والموت ، ونقصد محيط الفلسفة والمتفلسفة ومن نسج على منوالهم ، فقد تساءلوا فى شعر كثير عن الجسد والروح والمعاد . ولابن الشبل البغدادى قصيدة طويلة ، مطلعها :

بربك أيها الفلك المدارُ أقصدٌ ذا المسير أم اضطرارُ

وفيها يتساءل — كما نرى فى هذا البيت — عن الفلك ومحور نظامه وهل هو الاضطرار والجبر أو هو القصد والإرداة ، ويتساءل عن الروح وهل تخلّد أو يدركها البوار والفناء مع فناء الجسد وبواره ، ويقص قصة الكون وما يكون من زواله ، كما يقص قصة آدم وهبوطه من الجنة إلى هذا العالم الذى يشقى فيه أبناؤه ، ويشعر بأنه مسير فى يد القدر كما يشعر بحيرة وقلق شديد إزاء القضاء من جهة وإزاء الموت من جهة أخرى ، ويقول :

أهذا الداء ليس له دواءٌ   وهذا الكسر ليس له انجبارُ

ويحاول ابن سينا فى قصيدته العينية المشهورة عن النفس أن يصور لنا رحلتها من عالم الروح والعقول المجردة إلى عالم البدن والجسد حين يتخلّق فى الرحم، وتتعلق بعالمها الجديد، ولكنها لا تزال تذكر عالمها القديم وتحن إليه ويشتد بها الوجد والحنين فتهمى مدامعها وتفيض. ثم يحين وقت الفراق لجسدها فتبكى وتحزن كما بكت وحزنت حين اتصلت به وعاشت فيه. ويكشف عنها الغطاء، فتسرّ بخلاصها وتأنس بما انقطعت عنه من عالمها: عالم الغيب والشهادة. ويحار ابن سينا حيرة ابن الشبل فى هبوطها وصعودها وما يتبع ذلك عند الإنسان من الحياة والموت. ووراء ابن سينا وابن الشبل كثيرون تحدثوا عن المعاد والنفس والروح، وقد اشتهر أبو العتاهية بالحديث عن الزهد فى الحياة والتنفير من متاعها، وتناول هذا كله أبو العلاء بنظراته الحرة، ولم يَدْعُ إلى الإقبال على الحياة، وإنما دعا إلى التشاؤم والزهد المفرط فيها والانصراف عنها انصرافاً تامًّا. ولا نبعدْ إذا قلنا إن «لزومياته» إنما هى تصوير كبير لشكوكه وبؤسه اللذين استوعبا نفسه، فهى قصة نفس قبل أن تكون قصة عقل وفكر، وهى أزمة نفس قبل أن تكون أزمة عقل وفكر.

ولعل شاعراً لم يكثر من التأمل فى نفسه وأنفس الناس كما أكثر المتنبى، فصوّر الناس من حوله وما جُبِلوا عليه من حسد وظلم وطباع سيئة، وصوّر نفسه وآماله وآلامه وخيبته المرة تصويراً نحس أنه ينبع من صميم قلبه، وهو مبثوث فى مقدمات قصائده وثناياها حِكماً ثبتت على الزمن ودارت على كل لسان بما فيها من قوة التصوير وصدق الحس ودقة الفطنة، حتى لكأن النفوس انقادت إليه ليجسّد أحوالها شعراً رائعاً. وقد وقف كثيرون غيره عند النفس وطباعها على نحو ما نجد فى كتاب أدب الدنيا والدين للماوردى مثلا، ولكن لن تجد شاعراً بلغ مبلغه من البصر بالنفوس وأحوالها وأخلاقها، لأنه كان يحس إحساساً عميقاً بمأساة حياته وأنه لا يستطيع تحقيق أحلامه لهذه السدود القائمة من طباع الناس فى عصره، فركز تأمله فى دخيلة نفسه ودخائل نفوسهم

ولم يهتم بمظاهر الطبيعة من حوله ، بل استغرقه هذا التأمل النفسى ، وسال فى جميع أبواب شعره حكمة وخبرة .

٢

ولما ظهرت الأبحاث السيكولوجية فى عصرنا ترامت منها ظلال كثيرة إلى شعرنا منذ مفتتح هذا القرن العشرين ، فالشعراء يعنون بتحليل النفوس والعواطف والأهواء ، ويتميز عبد الرحمن شكرى بذلك فى شعره تميزاً واضحاً ، حتى لكأنه فى بعض قصائده عالم نفسى يحلل ويشرح ويصف الداء والأدواء . وقلما يخلو شاعر من وقفة أو وقفات نفسية ، وخاصة من نزعوا إلى التجديد فى شعرهم ، ولكنك لن تجد شاعراً ركز بصره فى داخله وتصوير مشاعره إزاء الكون ومشاكله على نحو ما ركزه ميخائيل نعيمه ، فقد ظل فى ديوانه « همس الجفون » مشغولا بأحواله وخواطره النفسية الفردية ، حتى ليحول أفكاره فى الوجود إلى تأملات نفسية شخصية إن صح هذا التعبير .

وميخائيل نعيمه يجتاز اليوم العقد السابع من حياته ، إذ ولد سنة ١٨٨٩ فى بسكنتا بلبنان ، وتعلم فى مدرسة روسية بها ، انتقل بعدها إلى كلية المعلمين الروسية فى مدينة الناصرة بفلسطين ، ثم رحل إلى مدينة بولتافا فى أوكرانيا ليتم تعليمه ، وبقى إلى سنة ١٩١١ ثم عاد إلى لبنان ومنها هاجر إلى الولايات المتحدة سنة ١٩١٢ فالتحق بجامعة واشنطن لدراسة القانون . ولما اشتركت الولايات المتحدة فى الحرب الأولى لهذا القرن انتظم فى سلك كتائبها التى أرسلت إلى فرنسا ، وبقى بها بعد الحرب نحو سنتين يدرس فى جامعة «رين» تاريخ الآداب والفنون ، ثم عاد إلى مهاجره ، فأسس مع جبران وصحبه جماعة « الرابطة القلمية » وظل هناك اثنى عشر عاماً يحمل رسالة الجماعة ويؤديها مقالات وأشعاراً ونقداً . وكتابه « الغربال » يشرح أفكاره وأفكار جماعته فى الشعر العربى وما ينبغى أن يصير إليه من تجديد فى جميع مناحيه ، وقد نشره فى سنة ١٩٢٣ وفيه يحمل

حملة شعواء على أغراض شعرنا التقليدية من مديح وغير مديح ، كما يحمل على قيوده اللغوية وما يسمى بالجزالة اللفظية ، ويتحدث عن المقاييس الصحيحة للشعر فى رأيه ، ويردها إلى حاجات الإنسان النفسية الثابتة ، وهى حاجته إلى الإفصاح عن كل ما ينتابه من العوامل الوجدانية من رجاء ويأس وفوز وفشل وإيمان وشك وحب وكره ولذة وألم وحزن وفرح وخوف وطمأنينة وكل ما يتصل بذلك من انفعالات وتأثيرات ، وتقترن هذه الحاجة بحاجته إلى نور يهتدى به فى الحياة ، وليس من نور يهتدى به غير نور الحقيقة ، حقيقة ما فى نفسه وحقيقة ما فى العالم من حوله ، ثم لا بد من حاجته إلى الإحساس بالجمال وبالموسيقى فى كل شىء ، فإذا اجتمع الشعور الدقيق بهذه الحاجات فى نفس الشاعر وصدر عنه كان شعره جديراً بالتقدير والإعجاب .

وقد طبق ميخائيل نعيمه هذه المقاييس على شعره منذ بدأ ينظمه فى سنة ١٩١٧ حتى فرغ منه فى سنة ١٩٣٠ فجميع منظوماته لا تتجاوز هذين التاريخين ، وكأنه بعد أن رجع من غربته إلى وطنه فى سنة ١٩٣٢ لم يعد إلى نظم الشعر ، فقد انصرف عنه إلى القصة . وإذا رجعنا إلى الديوان نقرأ فيه وجدناه كاسمه همساً بكل ما فى نفسه وبكل أحاسيسه ، همس خفيض ، ليس فيه صياح ولا عويل ، تحس ذلك فى لفظه وموسيقاه ، فألفاظه خفيفة ، وموسيقاه رقيقة النبرات كالنسيم . والقصيدة كثيراً ما تنتقل من لحن إلى لحن ومن قافية إلى قافية ولكن فى هدوء ، فليس فى كيان شعره عنف ، لأن نفسه لا تحتوى على أى عنف ، وهو فى ذلك يفترق عن إيليا أبى ماضى الثائر فى كثير من شعره ، كما يفترق عن جبران المتمرد زعيم الرابطة فى شعره ونثره جميعاً . إن نفسه هادئة وكل ما يصدر عنها هادئ مثلها ، ليس فيه حدة ولا غضب ، إنه يمضى فى الحياة راضياً ناعماً بكل ما قسمته له المقادير والأيام :

ذمُّك الأيامَ لا ينفعك فهْى لا أذْن لها تسمعك
لا ولا عينٌ ترى عقرباً فى دياجير الأسى تلسعك
لا ولا قلب يرق وإن جفّ من طول البكا مدمعك

وهو لذلك لا يئن ولا يلهث ألما مما يصيبه من الأيام والزمان، فهو يرضى بحظه المقسوم، وكأنه قد آمن بأن ذلك نظام الحياة وأن عليه أن يندمج فى هذا النظام، فلا يتمرد ولا يرتد إلى غوايات جسدية ، إنما يخضع وينيب . ولم يفكر أبداً فى أن الشر ينبغى أن يزول من الدنيا وأن تعفى آثاره ، فقد كان يراها بُنيت من الخير والشر جميعاً وأنه إن سقط أحدهما منها سقط بنيانها وتداعت أركانه ، لذلك ذهب يصورهما فى قصيدته : « الخير والشر » على هذا النحو :

سمعتُ فى حُلْمى ويا للعجبْ ... سمعت شيطانا يناجى ملاكْ
يقول : إى بل ألف إى يا أخى ... لولا جحيمى أين كانت سماك
أليس أنَّا توأمان استوى ... سرُّ البقا فينـا وسر الهلاك
ألم نُصَغْ من جوهرٍ واحد ... إن ينسنى الناس أتنسى أخاك

* * *

فأطرقَ ابن النور مسترجعاً ... فى نفسه ذكرى زمان قديمْ
واغرورقتْ عينـاه لما انحنى ... مستغفـراً وعانق ابنَ الجحيم
وقال : إى بل ألف إى يا أخى ... من نارك الحرَّى أتانى النعيم
وحلقَ الإثنـان جنباً إلى ... جنب وضاعا بين وَشْىِ السديم

فهو يرى الخير والشر أخوين ، بل توأما واحداً ، فهما سر الوجود ، صيغا من جوهر متحد ، وإن اختلفا شيطاناً وملاكاً وظلاماً ونوراً وجحيما ونعيماً ، بل لولا نار الشر ما تمت للخير صفات نعيمه ولا شعر الإنسان بهذا النعيم ، فهو الذى يعرفه به حين يجتاز بنيران آلامه ، ولو أن العالم كان خيراً خالصاً ما عرفنا قيمة الخير ولا نفعه وفائدته ولبطل الشعور به وبطلت الفرحة والسرور ، بل لبطل نظام الدنيا وعَدِمَ معانيه وحقائقه ، وما الدنيا إلا نافع وضار ، ومكروه وسار ، وممتع ومؤلم ، ومؤنس وموحش . وبذلك كله يتم للإنسان تمييزه وصلاحه ، حين يعرف الشر وأذاه فيتركه إلى الخير ونفعه ، فالشر والخير أخوان وجدا مع ابتداء الدنيا ويستمران إلى انقضائها ، لذلك يتصافحان فى نهاية القصيدة ويحلقان

فى السديم أو فى الوجود ، فهما جوهره وكيانه . ويردد نعيمه نفس الفكرة فى قصيدته : « العراك » :

دخل الشيطان قلبى فرأى فيه ملاك
وبلمح الطرف ما بينهما اشتد العراك
ذا يقول البيت بيتى فيعيد القولَ ذاك
وأنا أشهد ما يجرى ولا أبدى حراك

* * *

وإلى اليوم أرانى فى شكوك وارتباك
لست أدرى أرجيمٌ فى فؤادى أم ملاك

والشر والخير هنا ليس فى الدنيا من حوله ، وإنما هما فى قلبه ، يجد كرب الشر حينا وأنس الخير حيناً آخر ، وهو موزع بينهما ، إنهما نظام وجوده ، كما أنهما نظام الوجود كله ، تارة يستسلم للشر وشيطانه وتارة يستسلم للخير وملاكه ، بل إنهما ليعتركان فى داخله ، يقوده هذا مرة وذاك مرة وهو ماض فى طريقه ، طريق الحياة التى قامت على حافتيه أعلامهما وانتصبت صورهما .

وهذا اليقين بنظام الحياة وسرها قد تمر به لحظات شك ، ولكنها لحظات خاطفة ، سرعان ما ينطفىء وميضها ، ومع ذلك فإنها تخلف وراءها صورة نفسه حين اعترته ، على نحو ما يرى قارؤه لقصيدته : « أنشودة » وفيها يشكو جروحه من الحياة والناس وقروحه :

ألقيت دَلْوى بين الدِّلاء
وقلت علىَّ أحظى بماء
فعاد دلوى مع الدلاء
وليس فيه إلا رجائى

* * *

أرسلت طرْفى بين النجوم
وقلت علّى أنسى همومى
فطاف طرْفى بين النجوم
ولم يشاهد سوى غمومى

• • •

قدمت حبى لمبغضيا
لقاء ما قد جنَوا عليّا
فكان حظى من مبغضيَّا
أن عاد حبى بغضاً إليَّا

فهو يشكو من آماله الذاوية ومن همومه وغمومه ومن الناس ، إذ يقدم لهم حبه ، ولا يقدمون له إلا الكره والبغض ، ولكن لا يلبث فى نهاية القصيدة أن يطلب إلى روحه وهى تئن بهذه المشاعر أن تغنى ولا تنوح ، فتلك الآلام كلها من وجوه الحياة ، بل هى من ألحان العمر وأغانيه ، وإذا تمردنا بسببها تمردنا على نظام العيش المسخر لنا .

إننا لم نخلق لنذوق ثمار الخير الحلوة وحدها ، بل خلقنا لنذوق ثمار الشر المرة البغيضة معها ، وبذلك تتم الحياة ، بل هى لا تتم إلا إذا رضينا بآلام العيش وأوزاره ، وإنها لتتراءى له فى قصيدة « صدى الأجراس» شكوكاً تهتف به وتصيح ، وكأنها تريد أن تحيل تذكارات الصبا المرحة التى يتحدث عنها دموعاً ، وهى نفسها التى تهتف به فى قصيدة « ترنيمة الرياح » :

أتردّى رداء المنونْ وأداوى الأسى بالظنونْ
كل فكرى سوادْ كل قلبى سهادْ
كل دَرْبى قتاد كل عيشى كفاح

وكأنما شيطان قلبه أو فكره هو الذى يجرى على لسانه هذا الأنين والنواح ، ويلمح ملاك الخير يبسط الجناح فيناديه ، ويبثه آلامه وشكواه ، ويبكى

الملاك معه كأنما ضل الطريق . ولا يلبث أن يندم على ما باح به من هموم ، فيطلب النوم عله يزيح هذا الغم الذى أرقه ، والذى لا ينبع من الخارج إنما ينبع من داخله . وهو يؤمن دائماً بأن ما نستشعره من حزن فى الحياة أو سرور إنما هو صورة نفسنا الباطنة ، فمن رضى داخله رضى خارجه ، أما هو فكان شديد الرضا بوجهى حياته : الأسود والأبيض والمحزن والمفرح ، ومن خير ما يصور ذلك فى شعره قصيدته « الطمأنينة » :

سَقفُ بيتى حديدْ رُكنُ بيتى حَجرْ
فاعْصفى يا رياحْ وانتحبْ يا شجر
واسبحى يا غيوم واهطلى بالمطر
واقصفى يا رعود لست أخشى خطر

* * *

باب قلبى حصين من صنوف الكدرْ
فاهجمى يا هموم فى المسا والسحر
وازحفى يا نحوس بالشقا والضجر
وانزلى بالألوف يا خطوب البشر

* * *

وحليفى القضاء ورفيقى القدر
فاقدحى يا شرور حول قلبى الشرر
واحفرى يا منون حول بيتى الحفرْ
لست أخشى العذاب لست أخشى الضرر

فنفسه مطمئنة ولا يكدر طمأنينتها ولا يعكرها أى شىء مهما عصفت الرياح من حولها وانتحب الشجر وسبحت الغيوم وقصفت الرعود وهجمت الهموم وزحفت النحوس ونزلت الخطوب والشرور . حتى الموت وما يحفره حول بيته من حفر لا يعيره التفاتاً ، فهو لا يخشاه ، بل لا يخشى العذاب المنتظر ، فهو راض بالقضاء والقدر وكل ما قسمه له أو كتبه عليه .

٣

ونعيمه فى تصويره لأحوال نفسه وما يتعاقب عليها من ظلال الشر وأضواء الخير إنما كان يصدر عن إيمان عميق بعالم الروح ، فهو ليس ماديًّا مثل أبى ماضى ، بل لقد انعتق من المادية انعتاقاً ، بل لعله لم يكن يؤمن بما يسمى مادة ، فكل ما فى الحياة من ظواهر مادية قد فاض عن الذات العلية ، واستسرت فى داخله أسرارها واستبطنت فى أعماقه جواهرها ، فكل ما فى الكون منها ، صدر عنها وفاض ، وما نسميه مادة إنما هو صفة من صفاتها وعرض من أعراضها .

نحن إذن بإزاء شاعر ، له أحلامه الصوفية ، وهو لذلك تطمئن نفسه إزاء محن الحياة ، بل هو يراها كما قدمنا ضرورة من ضرورات الوجود ، يلبسها كل كائن كما يلبس مسرات الخير ، بل يكاد يقول إنه لا شر ولا خير ، إنما هى الحياة التى أرادها لنا مبدع الوجود ، وعلينا أن نقبل إرادته ومشيئته ، فنحن جزء من نظامه ، القائم على هذين الوجهين المتقابلين ، وينبغى أن لا نرضى عن وجه دون وجه ، فإن الحياة لا تتم ، ولا يتم للإنسان إحساسه الكامل بها إلا إذا تقلب بين شر وخير ومضرة ومسرة .

ولكن هذا التفكير كله وما يطوى فيه من أحاديث نفسه إنما يتصل بالإنسان وما يرزح تحته من هموم وآلام وإن تفكيراً آخر وأحاديث أخرى كانت أكثر انسياباً فى شعره ، ونقصد سبحات قلبه نحو عالم السماء . وما كان يطلبه من الاتصال والاتحاد بمنشئه ، وهو دائماً يشعر أن الأرض تثقله ، وأنه لا يستطيع التحليق فى الجو الروحى ، إلا إذا صفا قلبه ، بل إلا إذا أمعن القلب فى أحلامه ورؤاه ، ولعله لذلك أعلن فى قصيدته : « أفاق القلب » ازدراءه . للعقل فقد اطمأن إليه ذات يوم وظن أنه يعينه فى أمانيه الروحية ، يقول :

ورُحْتُ أجوب ما استترا من الدنيـــا وما ظهرا

وأبحث في غبار العيـ ـش عن خزفٍ وعن صدف
أراه بفكرتي دررا

ورحت أقيس أيامي وأعمالي وأحلامي
وما حولي ومن حولي وما تحتي وما فوقي
بأفكاري وأوهامي

ولكنه لم يلبث أن عرف ضلاله ، فلجأ إلى قلبه ليقوده في هذا العالم الروحي ، إنه عالم لا يخضع لأقيسة العقل ولا ينزل عند أحكامه وأوهامه ، عالم لا يهتدى فيه إلا القلب ، فهو لا يُدْرك بالفكر ولا بالحس وإنما يدرك بالبصيرة . وتخلص نعيمه من عقله ولكنه شعر في أحوال كثيرة أنه لا يستطيع الوصول إلى غايته مع أن وسائلها كلها ملك قلبه وملك قلب كل إنسان ، وكأن الناس لايدرون ، فهم يبحثون عنها في كل مكان ، جاهلين أنها بين جوانحهم ومستسرّ أفئدتهم ، وقد عبر عن ذلك بقصيدته : « في الطريق » تعبيرا واضحاً :

وسنبقى نفحص الآ ثار من هذا وذاكْ
ريثما ندرك أن الدربَ فينا لا هناك

ومن أروع أشعاره التي تصور قلقه النفسي إزاء ما يريده من تبين هذا الدرب الروحي المستكن في أعماقه قصيدته : « التائه » وهو يستهلها بأنه ضال في مهمه سحيق ، يكتوى فيه بنيران حياته وآماله وأطماعه وقد باعدت السماء بينه وبينها ، وهو لا يدرى أذلك من تغلب الهوى ومطالب الجسد عليه أو من تغلب الفكر وشكوك العقل أو من قصور قلبه ومشاعر فؤاده ، ويضرع إلى ربه :

أخالقي رُحْماكا بما برتْ يداكا
إن لم أكن صداكا فصوت مَنْ أنا
ربي ! ألا تراني أساق كالحُمْلان

ربى ! أما كفانى عماىَ والونىَ

* * *

أبدل لظى نيرانى بجمرة الإيمان
واجعل من الحنان للقلب مرهما
إذ ذاك بالتهليلِ أسير فى سبيلى
وخالقى دليلى ووجهتى السما

فهو يدعو ربه أن يخلصه من قيود شهواته التى يساق فيها سوق الحملان ، والتى تعمى فيها بصيرته وروحه وهى ليست قيودا بل هى نيران تعتلج فى قلبه ويرجومن الله أن يبدله منها جمرة الإيمان فنارها نارسلام، وأن يداوى بمرهمه هذه الجروح الناشبة فى فؤاده ، حينئذ يهلل لربه تهليلا ، إذ يرى سبيله على ضوء هداه فيصعد فى مراقى السماء .

ونراه يؤمن إيماناً عميقاً بخلود الروح بعد تحررها من الجسد وأعبائه وقيوده أو سجونه، بل إنه يؤمن بأن الولادة والموت جميعاً إنما هما حلقتان فى سلسلة الحياة غير المتناهية ، وقصيدته : « أوراق الخريف » توضح هذه الفكرة توضيحاً دقيقاً ، وهو يستهلها بقوله :

تناثرى تناثرى يا بهجة النَّظَرْ
يا مرقص الشمس ويا أرجوحة القمر
يا أرغن الليل ويا قيثارة السَّحَرْ
يا رمز فكر حائر ورسم روحٍ ثائرِ
يا ذكر مجدٍ غابر قد عافك الشجرْ

تناثرى تناثرى

إنها فى حال تناثرها تذكره بكل تلك الصور الجميلة التى كانت تبدو فيها ، ولكن لم يعد لها موضع فى الحياة ، فقد عافها الشجر ، ولم يعد أمامها إلا أن تسقط إلى التراب ، وإنها لرمز الإنسان وأطوار حياته فهو ما يزال يتقلب فيها ليلا ونهاراً ، ثم تحين ساعة الموت ولا مفر ولا خلاص ، فليقبله

راضياً ، فهو إنما ينتقل من دورة إلى دورة وحياته باقية ، ولذلك يتوجه نعيمه فى نهاية قصيدته بهذا الخطاب إلى أوراق الخريف :

عودى إلى حضن الثرى وجددى العهود
وانسى جمالا قد ذوى ما كان لن يعود
كم أزهرت من قبلك وكم ذوت ورود
فلا تخافى ما جرى ولا تلومى القدرا
من قد أضاع جوهرا يلقاه فى اللحود
عودى إلى حضن الثرى

فتلك سنة الحياة التى نحياها ، واللحود ليست فناء ولا رمز فناء ، وإنما هى دورة جديدة من دورات الحياة غير المتناهية . وهو ينتظر هذه الدورة بدوره قرير العين ، لا يشعر نحوها بأى خوف ، بل يملؤه الأمل بأنه سيتخلص من ثياب حياته وهمومها وأحلامها ، ويستقبل حياة جديدة ، وقصيدته : « الآن » تصور فرحته بهذه النقلة الموعودة ، وهو يبدؤها بأنه سيرد هبات الناس للناس وكل ما لهم عنده من فكر وإحساس ، ويأسى لما ناله منهم فقد نصبوا أوثانهم فى قدس أقداسه، ثم يأخذ فى بيان سروره لانفكاكه من قيود دنياهم، يقول :

غداً أعيد يا بقا الطين للطين
وأطلق الروح من سجن التخامين
وأترك الموت للموتى ومن ولدوا
والخير والشر للدنيا وللدين
وألبس العرى درعاً لا تحطمه
أيدى الملائك أو أيدى الشياطين
فلا تروعنى نار الجحيم ولا
مجالس الحور فى الفردوس تغرينى

* * *

غداً أجوز حدود السمع والبصر

فأدرك المبتدا الممكنون فى خبرى
فلا كواكبُ إلا كان لى سُبُلُ
فيها ، ولا تربةٌ إلا بها أثرى
لى فى القضاء قضاءٌ والمنون مُنى
وفى ملاحمة الأقدار لى قَدَرى
غداً ؟ ولا أمس لى حتى أقول غدا
فلتمحها «الآن» من نطقى ومن فِكَرى

فهو ينتظر الموت وكأنه وقت الخلاص أو وقت التحرر لروحه من سجن الطين أو سجن الجسد ، وهو سعيد بذلك لا لأنه يفكر فى فردوس أو فى جحيم ، وإنما لأنه يريد أن يصير إلى الحياة الدائمة ، التى لا تتناهى والتى تخرج عن حدود السمع والبصر والزمان والمكان ، وهو يتشوق تشوقاً حاراً إلى هذه الحياة الجديدة ، إنها أمنيته ، وهى أمنية ينمحى فيها حاضره ، أو تنمحى فيها حياته ، أما ما قبل حياته وولادته مما يعد أمسه الحقيقى فإنه لا يدرى عنه شيئاً ، وأما الغد فإنه يشعر برغبة ملحة فى كيانه للوصول إليه يشعر كأنما شىء يقوده من الداخل ليصل إلى هذه المرحلة التى يتحرر فيها من الجسد والفكر وكل ما يتصل بحياتنا الدنيا .

ونعيمه يصدر فى ذلك عن شعور المتصوف الذى لا يرهب ما بعد دنياه ، بل الذى يطلب الخروج من دنيانا إلى دنيا السماء وعالم الروح ، وهذا التشوق إلى الاتصال بالعالم الروحى والنفوذ إليه هو كل ما نجده فى « همس الجفون » كما يتراءى لنا شعور كامل بوحدة الوجود ، يقول فى قصيدته : « إلى دودة » يستصغر الناس قدرها :

لعمرك يا أختاه ما فى حياتنا مراتب قَدْرٍ أو تفاوت أثمانِ
مظاهرها فى الكون تبدو لناظرٍ كثيرةَ أشكالٍ عديدةَ ألوانِ
وأقنومها باقٍ من البدء واحدا تجلَّتْ بشهبٍ أم تجلَّت بديدانِ

ونراه يقرر قبل ذلك أن إدراك هذه الوحدة الوجودية التى يستوى فيها الدود والإنسان إنما يكون عن طريق القلب لا عن طريق العقل ، فالعقل لا يستطيع أن يدرك أسرار الكون ، إنما الذى يستطيع ذلك هو القلب ، فهو وحده الذى يدرك أن المظاهر الكونية إن تعددت فى الخارج وتحت العين ، فكانت دوداً أو إنساناً أو بحراً أو شمساً أو قمراً، فإنها فى حقيقتها شىء واحد تتجلى فيه الذات الإلهية ، ودع ما تريك العين ويريك العقل ، واعتنق ما يريك القلب ، فهو الذى يعرف الحقيقة وأن كل ما يتعدد من أشكال الطبيعة وألوانها مما جلّ أو دقّ من شهب أو دود وفراش، كل ذلك واحد فى جوهره وفى لبه وصميمه . وهو يوضح هذه الفكرة فى قصيدته : « من أنت يا نفسى » إذ نراه فيها يحس صلة عميقة بين نفسه وبين أمواج البحر ، حتى كأنها جزء لا يتجزأ منها ، ويحس نفس الإحساس إزاء الرعد والبرق فى السحب ، وهى تزمجر فوق الجبال والتلال ، وإزاء الفجر وهو ينبثق من جُبَّة الليل الموشاة بالنجوم ، والشمس وهى تحتضن المياه الزاخرة ناظرة إلى الأرض بعينها الساحرة ، والبلبل وهو يتغنى بين الياسمين ساكباً لألحانه الفاتنة . فهو يشعر أنه يتحد مع كل هذه المظاهر الطبيعية اتحاداً وجوديًّا كاملا ، وهو اتحاد تتجلى فيه أضواء الذات الإلهية وتشع أنوار جمالها ، يقول مختتمًا لقصيدته تلك :

إيه نفسى أنتِ لحنٌ فىَّ قد رنَّ صداه
وقّعتْـك يد فنَّا نٍ خفىٍّ لا أراه
أنت ريحٌ ونسيمٌ أنتِ موج أنت بحرُ
أنت برقٌ أنت رعدٌ أنت ليلٌ أنت فجرُ
أنت فيضٌ من إله

فهو يرى أن الله والعالم شىء واحد وأن كل ما يراه من مظاهر خارجية وصور متعددة إنما يشهد به الحس الظاهر ، أما الحس الباطن فإنه يشهد بأن تلك ظواهر لحقيقة واحدة ، حقيقة لا تبلى ولا تفنى ، وهى حقيقة الذات الإلهية

التى تفيض على الوجود ، بل التى تتجلى فيه وفى صوره وأشكاله المختلفة . وبهذه الفكرة نظم قصيدته : « ابتهالات » وهو يستهلها على هذا النحو :

كحّل اللهمّ عينى بشعاع من ضياكْ
كى تراكْ

فى جميع الخلق ، فى دود القبورْ فى نسور الجو ، فى موج البحارْ
فى صهاريج البرارى ، فى الزهور فى الكلا ، فى التبر ، فى رمل القفارْ
فى قروح البُرْص ، فى وجه السليم فى يد القاتل ، فى نجع القتيلْ
فى سرير العرس ، فى نعش الفطيم فى يد المحسن ، فى كف البخيل

والابتهالات كلها على هذه الشاكلة من الإحساس بوحدة الوجود ، وكأنما كل ما حوله يكمله أو كأنه جزء منه ، فهو يعطف عليه حقيراً أو جليلا وسليما وغير سليم وحيًّا وغير حى وموصوفاً بصفة الكمال وغير موصوف ، فكل ذلك يتجلى فيه ربه وكأنه ظل من ظلاله ، بل هو نور من نوره ، وهو يدعو الله أن يكحل عينه بشعاع من ضيائه حتى يستطيع أن يشهده فى الكون ومتناقضاته .

وأظن أنه قد اتضح الآن أن ديوان همس الجفون يشكل حياة نفسية تامة ، وهى حياة نفس مطمئنة هادئة كالبحر الساجى ، فلا رياح ولا عواصف ، بل تقبُّل للحياة بما فيها من خير وشر وازدراء للعقل وشكوكه وأوهامه ، وإيمان بالقلب وما يدرك من أسرار الوجود وألغازه ، ورغبة فى الوصول الصوفى إلى عالم السماء الروحى ، وشعور عميق بوحدة الوجود ، فالله يتجلى فى جميع صوره وأشكاله . ونعيمه يعرض علينا ذلك كله ويعرض معه كيف راض نفسه على الإيمان به ، وهى رياضة كانت تتراءى له أثناءها محنة الآلام الإنسانية وما يجرى معها فى الكون من ظلمات الشر ، كما كانت تتراءى له محنة الفكر أو العقل وما يجرى معه من الشكوك المفسدة ، ولكن ذلك لم يضعضع إيمانه بقلبه ، فقد وجد عنده ما يحل به ألغاز الوجود ويبث الطمأنينة والراحة فى نفسه .